2- واقع التّربية الدّينية في ظلّ الغزو الثّقافيّ

(قراءة معاصرة في ضوء القرآن الكريم)

The Reality of Religious Education in the Shadow of Cultural Invasion: A Contemporary Reading in the Light of the Holy Qur’an

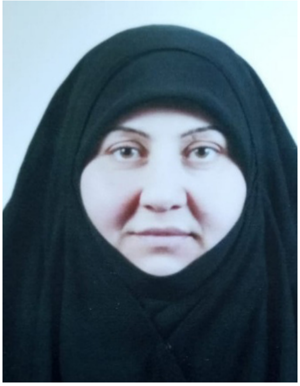

بقلم الباحثة: مريم أحمد فقيه

باحثة في مرحلة الدكتوراه في الجامعة الإسلاميّة في لبنان- بيروت-خلدة

Mariamfakih622@gmail.com

مستخلص

يعالج البحث واقع التّربية الدّينيّة في ظلّ الغزو الثّقافيّ والهجمات الرّقميّة الممنهجة التي تستهدف القيم والمبادئ الرّاسخة التي قامت على أساسها أجيال كثيرة. وهو يهدف إلى دراسة هذا الواقع وكشف التّحدّيات التي تترصّده ضمن الموجة الكونيّة الجامحة من دون ضوابط ولا قيود، والتي طالت الهويّة الدّينيّة والأخلاق الإسلاميّة في مظاهر علنيّة واضحة. هذا بالإضافة إلى مناقشة مخاطر العولمة الرّقميّة، وكيفيّة تطويعها لتصبح في خدمة المشروع الإسلاميّ الهادف إلى بناء إنسان متّزنٍ ومستقرٍّ روحيًّا ونفسيًّا ومادّيًّا.

لذلك، كان لا بدّ من إضاءة هذه التّداعيات من خلال منهج نقديّ تحليليّ؛ إذ تظهر الثّغرات التي تشوب أنظمة التّربية الدّينيّة اليوم، علمًا أنّ أمورًا لا تزال تحت السّيطرة، وذلك سعيًا للوصول إلى مقترح نحو بناء نموذج تربويّ متكامل يشكّل حصانة مانعة لأشكال الاختراق القِيميّ والثّقافيّ.

الكلمات المفتاحيّة: تربية دينيّة- القرآن الكريم- الهويّة الإسلاميّة- المسلم الواعي- غزو ثقافيّ- عولمة.

Abstract

This research addresses the reality of religious education in light of the cultural invasion and systematic digital assaults targeting the deeply rooted values and principles upon which many generations have been raised. It aims to examine this reality and uncover the challenges it faces amid the unrestrained global wave that has openly affected religious identity and Islamic moral values.

In addition, the study discusses the risks of digital globalization and explores ways to harness it in service of the Islamic project that seeks to build a balanced human being — spiritually, psychologically, and materially stable.

Therefore, it is necessary to shed light on these repercussions through a critical and analytical approach, revealing the gaps that characterize today's systems of religious education, while acknowledging that many aspects remain under control. The ultimate goal is to propose a comprehensive educational model that provides effective protection against various forms of moral and cultural infiltration.

Keywords: Religious education – The Holy Qur'an – Islamic identity – Conscious Muslim – Cultural invasion – Globalization.

1. مقدّمة

يذكر مؤرّخو العصر الإسلاميّ العديد اللّقاءات وجلسات الحوار التي جمعت النّبي(ص) بأتباع الدّيانات الأخرى؛ خاصّة اليهود والمسيحيّين، فكانت تتراوح بين الحوارات الفكريّة والمناقشات الدّينيّة، وكانت غالبًا ما تهدف إلى تبادل الأفكار والبحث عن الحقيقة، مع الحفاظ على الاحترام المُتبادَل؛ ما يعني أنّ الإسلام في واقع الأمر لا يرفض مثل هذا النّوع من التّعدّدية الدّينيّة؛ إذ إنّه لم ينكر الواقع التّعدّدي في العالم على مدى العصور. وهذا ما نراه بوضوح من خلال أسلوب النّبي(ص) في التّعامل مع اليهود في المدينة؛ حيث سعى إلى عقد معاهدة معهم تضمن حقوق المسلمين، وتسمح لليهود بأن يعيشوا في المدينة من دون أن يؤذيهم أحد؛ بل نجد أنّ القرآن الكريم قد دعا إلى الحوار مع سائر الأديان، وذلك في عدّة آيات، منها قوله تعالى ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ

رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: 125) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 64)، وكذلك عندما حاور النّبي(ص) نصارى نجران في أمور العقيدة وحول طبيعة النّبي المسيح عيسى بن مريم(ع)، فعلى الرّغم من انتهاء الحوار إلى عدم التّوافق العقائديّ؛ تميّز بالاحترام المُتبادَل، وقد ذُكِر ذلك في سورة آل عمران وتحديدًا الآية التي تدعو إلى المباهلة، وهي المناظرة بين النّبيّ(ص) والوفد النّجرانيّ. (اليزدي، 2006، الصفحات ص76–75).

في السّياق نفسه، كان للأئمّة لقاءات مع بعض النّصارى واليهود؛ فجرت محاورتهم بحكمة وموعظة حسنة مُستخدِمين معارفهم الواسعة من التّوراة والإنجيل لإثبات الإسلام، ومن أشهرها مناظرة الإمام علي(ع) مع نصارى الشام عندما كان خليفة، وكذلك الإمام جعفر الصّادق(ع) الذي كان يجيب عن أسئلتهم حول الخلق والنّبوة مُستخدِمًا استدلالات عقليّة ونقليّة من الكتب السّماويّة. وكذلك موقف الإمام محمد بن علي الجواد الذي تجادل معهم حول مسألة التّحريف في الكتب السّماوية، مؤكّدًا عدم وقوع التّحريف في القرآن الكريم. أمّا أخطر المراحل كانت مرحلة الإمامين علي الهادي والحسن العسكري اللذين عاشا مرحلة من التّوتّر بين المسلمين وأتباع الدّيانات الأخرى، نتيجة الضّغط السّياسيّ من الخلافة العباسيّة.

يعني ذلك أنّ سيرة النّبيّ الأكرم والأئمّة الأطهار تثبت أهمّيّة العلاقات الحسنة والسّلوك الجيّد تجاه الآخر المختلف، وهي من مميّزات الإنسان المؤمن، والتي جرى تأكيدها حتّى عند التّواصل والاتّصال بغير المُسلمين وسائر الأديان الأخرى؛ لذلك، خاطب القرآن الكريم النّبي الأكرم(ص) ﴿ادعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (النحل: 125)، وجاء أيضًا في آية أخرى ﴿فبشّر عبادِ الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾ (الزمر: 18–17).

إذًا، اللّه سبحانه وتعالى جعل التّعايش مُمكنًا بين الإسلام والأديان الأخرى، فالإسلام يرتضي أن تعيش الأقلّيات تحت حكمه وهي تتمتّع بحقوقها الدّينيّة والعقائديّة– ويجب على المسلمين أن يرعَوا شؤونهم؛ فيعيش النّصارى واليهود في كنف الجو الإسلاميّ، تبعًا لتعاليم الكتاب

المبارك والسُنّة النّبوية الشّريفة وعترة أهل البيت الطّاهرة.

الإشكاليّة

ذلك التّعايش الفكريّ الثّقافيّ الدّينيّ حصل في عصر الإسلام في حضرة النّبي والأئمّة؛ لكنّ المفارقة اليوم، في القرن الحادي والعشرين، تكمن في التّحدّيات التي تواجهها التّربية الدّينيّة في ظلّ انتشار وسائل التّواصل السّريعة والمُتاحة بسهولة فائقة، والتي تربط أقصى الكون بأدناه؛ فكيف للتّربية الدّينيّة أن تثبت على ما بدأت به؟ من هنا، تطلق الإشكاليّة الكبرى الآتية:

كيف يمكن للتّربية الدّينيّة أن تواكب التّعدّد الثّقافيّ في إطار صون الهويّة الإسلاميّة وحمايتها من آثار العولمة الرّقميّة المستفحلة؟

تندرج تحت هذه الإشكاليّة عدّة تساؤلات وهي الآتية:

- كيف أثّرت العولمة الدّينيّة والثّقافيّة في تقويض المعتقدات الإسلاميّة؟
- هل بات تجديد الفكر الفكر الإسلاميّ التّربويّ ضرورة أم خيارًا؟
- هل يمكن أن تصل التّربية الدّينيّة إلى نموذج سليم وآمن ضمن عمليّات التّفاعل مع العالم الخارجيّ؟
- ما أبرز العوامل الرّئيسة في التّربية الدّينيّة النّاجحة؟

الفرضيّات

بناءً على المشكلات المطروحة أعلاه، يمكننا طرح الفرضيّات الآتية:

- يسعى الغزو الثّقافيّ الغربيّ عبر العولمة وتكنولوجيا الاتّصالات إلى نسف المعتقدات والعادات الدّينيّة والاتّجاه نحو الفرديّة الأنانيّة الباحثة عن اللّذة فقط.
- أصبح تجديد الفكر التّربويّ وآليّات التّربية الدّينيّة على مختلف الصُّعُد حاجة ملحّة وضروريّة لمكافحة الفساد المستشري بسرعة فائقة.
- يمكن للتّربية الدّينيّة أن تستخدم الحوار المنفتح العقلانيّ والحَذِر باتّباع خطوات احترازيّة ووقائيّة ضمن إطار التّفاعل مع العالم الجديد.
- عدّة عوامل تسهم في تصويب العمليّة التّربويّة النّاجحة عبر التّربية الدّينيّة السّليمة والمتوازنة.

أهمّية البحث وأهدافه

تتجلّى أهمّيّة هذه الدّراسة في استجلاء الأبعاد الخفيّة خلف الثّورة الرّقميّة التي تسيطر على فئات كبيرة وشرائح واسعة في المجتمع؛ لما لذلك من عواقب وخيمة لا

يُستَهان بها ولا يمكن التّغافل عنها؛ لذلك، أبرز أهداف البحث هي:

- تبيين واقع التّربية الدّينيّة في المرحلة المعاصرة.
- كشف العوامل المُؤدّية غلى انحراف المنظومة الأخلاقيّة والقيميّة.
- تعزيز دور التّربية الدّينيّة في بناء فرد صلب رصين قادر على مواجهة التّحدّيات الكبرى التي تمسّ الالتزام الأخلاقيّ في علاقاته مع العالم الخارجيّ.
- السّعي إلى تكوين وعي إسلاميّ متجدّد قابل للانفتاح على الثّقافات المختلفة استنادًا إلى التّعاليم القرآنيّة والسّنة النّبويّة الشّريفة.

المنهج المُعتَمَد

يرتكز العمل البحثيّ في قسمه الأكبر على المنهج الوصفيّ التّحليليّ الذي ساعد على تقديم صورة دقيقة لِواقع التّربية الدّينيّة في ظلّ العولمة والتّحدّيات التي تواجهها في المرحلة المعاصرة. إضافة إلى استخدام المنهج النّقديّ المقارِن؛ إذ يسعى البحث إلى إضاءة الثّغرات التي تشوب التّربية اليوم في محاولة لتحسينها وتقويمها بسبب تأثير العولمة في الهويّة الدّينيّة والقيم الأخلاقيّة؛ وذلك من خلال توضيح آليّات الانفتاح على الحضارات الأخرى وطرائق التّثاقف والتّحاور في عهد النّبي الأكرم(ص)، مقارنةً بتلك التي تجري اليوم في إطار الموجة الكونيّة التي تطيح بما يعرقل طريق مؤسّسيها في سبيل تحقيق أهدافهم الصّريحة أو المُعلَنة.

2. تداعيات العولمة على منظومة التّربية الدّينيّة

يشهد العالم اليوم تغيّرات سريعة بفِعل العولمة الرّقميّة التي امتدّت آثارها إلى مختلف المجالات الثّقافيّة والتّربويّة والقيميّة، والتي أدّت إلى نشوء تحدّيات جوهريّة أمام التّربية الدّينيّة التي تهدف إلى بناء إنسان سليم روحيًّا وذهنيًّا وعاطفيًّا؛ ذلك أنّ العولمة فتحت أمام التّربية سيلًا متدفّقًا من المعلومات والقيم عبر الوسائط الرّقميّة؛ ما يجعل فرص التّواصل والانفتاح عرضةً لمخاطر اضمحلال الهويّة الدّينيّة وتلاشي مبادئها.

1.2. انعكاس سلبيّات العولمة في الواقع الحقيقيّ

ينصّ القرآن الكريم على أنّ الإنسان هو المكلّف والمسؤول في هذه الحياة، ومن ذلك آيات كثيرة تدلّ هذا المفهوم، مثل قوله تعالى ﴿فوربّك لنسألنهم جميعًا عمّا كانوا يعملون﴾ (الحجر: 93-92)، وقوله تعالى ﴿وقفوهم إنّهم مسؤولون﴾ (الأحزاب:

15). وتأتي هذه المسؤوليّة؛ خاصّة مع ارتفاع مستوى الانحطاط والفساد الأخلاقيّ التي أفرزتها العولمة الدّينيّة التي تنصّ على أهداف مُعينّة، مثل زعزعة المعتقدات الدّينيّة لمصلحة الفكر الماديّ الرّأسماليّ، واستبعاد الإسلام من نُظُم التّربية والأخلاق، أيضًا، من «مخاطر العولمة في الجانب الاجتماعيّ أنّها تُركّز على حريّة الإنسان الفرديّة حتى تصل للمدى الذي يتحرّر فيه من كلّ قيود الأخلاق والدّين، والوصول إلى المرحلة العدميّة، وفي النّهاية يُصبح الإنسان أسيرًا لكلّ ما يُعرض عليه في الشّركات العالميّة الكبرى التي تستغلّه أسوأ استغلال، وتلاحقه به بما تنتجه وتروّج له من سلع استهلاكيّة وترفيهيّة، ولا تدع للفرد مجالاً للتّفكير في شيء آخر وتُصيبه بالخوف». (رجب، 2000، صفحة 15).

هذا يعني أنّ العولمة تسعى إلى التّلاعب بشخصيّة الأفراد والأمم جميعًا، فتثير في برامجها وأنشطتها الشّهوات الجسميّة، وتشيع أنواع الشّذوذ وتُحطّم قيم الفطرة الإنسانيّة، وهذا دليل واضح قاطع على نوايا الفكر الغربيّ في دحض القيم التي لطالما كرّستها التّربية الإسلاميّة. و قد تطرّق القرآن الكريم لذلك الانحراف منذ قوم لوط وعاقبهم على العمل الذي كانوا مصرّين عليه؛ إذ كانوا يأتون في ناديهم المنكر ويأتون الذّكران من العالمين، وقد وصف عملهم بالفاحشة في الآية الكريمة ﴿ولوطًا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ (العنكبوت: 28)؛ لكنّهم رفضوا نصائح نبيّهم، فأنزل الله عليهم عذابًا شديدًا» (اليزدي، 2006، صفحة 16).

تبين إذًا أنّ العولمة تستند مُباشرة إلى الحضارة الغربيّة المعاصرة التي توجهّها المبادئ غير الدّينيّة الوضعيّة التي لا تؤمن باللّه، ولا تعترف بالنّبوءات، ومنها نبوّة النّبي محمد(ص) ولا باليوم الآخر، ولا بالغيبيات الدّينيّة الثّابتة من الكتاب والسُنّة. من هنا تُشيع الحياة الماديّة والإلحاديّة عبر شبكاتها وأجهزتها العالميّة بأساليب ووسائل تقوم على الإغراء والخداع؛ كونها تؤثّر في مئات الملايين من المسلمين مُباشرة؛ فهي تفقد الإنسان المُسلم كيانه وشخصيّته، تفقده عقله وقلبه وروحه، وتفرغه من أصول الإيمان والأخلاق الحميدة. كما أنّ دراسة العولمة بأبعادها دراسة واعية تثبت، من دون أدنى شكّ، أنّ المسلمين جميعًا هم الهدف للعولمة الصّهيونيّة الأمريكيّة الرّأسماليّة.

2.2. النّقد الموجّه إلى الوجه الآخر للعولمة

يؤكدّ المفكّر الفرنسيّ المسلم «روجيه غارودي» مُتحدّثًا عن العولمة الأمريكيّة

الصّهيونيّة قائلاً: «هذه الوحدة التي أسّسها الحكّام الأمريكان واللّوبي الصهيونيّ «آلاي باك» Al Pac وساسة دولة «إسرائيل»، تقوم اليوم –أكثر من أيّ وقت مضى– على وحدة الهدف الذي هو مُحاربة الإسلام، وآسيا اللذين يعدّان أهمّ عقبتين في وجه الهيمنة العالميّة الأمريكيّة والصّهيونيّة». (الجميل، 2000، صفحة 22).

في هذا الإطار، الدّولة الصّهيونيّة طرحت تصوّرها الخاصّ للعولمة، وهي تحاول فرضه على الدّول المحيطة بها، وهو تصوّر «الشّرق أوسطيّة» صهيونيّة المنشأ، إسرائيليّة التّخطيط والتّنظيم، ولمصلحة الكيان الإسرائيليّ ويهود العالم في الدّرجة الأولى والدّول الغربيّة في الدّرجة الثّانية، وعلى حساب الوطن والمواطن العربيّ، وقد تبنّتها الولايات المتّحدة الأمريكيّة وسوّقتها للدّول الأوروبيّة؛ فنجحت في حمل العديد من الدّول العربية على الموافقة عليها» (حسين، 1995، صفحة 3).

إذًا، يحاول الكيان الصّهيونيّ فرض هذا المشروع على دول الشّرق الأوسط المحيط بها، ومن «أهدافها تكريس الغزو الفكريّ والثّقافيّ والحضاريّ للمنطقة» (حسين، 1995، الصفحات 6–5)، «وتهديد الهويّة الثّقافيّة العربيّة والإسلاميّة، والعمل على إذابتها» (أمين، 1994، صفحة 30). ما يعني أنّ الجهود التي تكرّسها العولمة الرّقميّة تسعى إلى إعادة تشكيل الوعي الجماعيّ في المنطقة بما يخدم مصالحها الاستعماريّة ومشروع الهيمنة الفكريّ الثّقافيّ.

أمّا في ما يتعلّق بالموقف الإسلاميّ تجاه سلبيّات العولمة الواضحة، والتي باتت من أكثر المظاهر شيوعًا ضمن فئات الشّباب، فيكاد يجمع المفكّرون والنّاقدون المسلمون أنّ العولمة الغربيّة تحديدًا بصيغتها الرّقميّة الحديثة تشكّل خطرًا حقيقيًّا يطال مجتمعات بكاملها ويهدّد استقرارها؛ إذ إنّ سرعى استجابة الأفراد للأنماط الجديدة في التّواصل وغيرها من التّقنيّات الحديثة تفوق تجاوبهم مع أي مبدأ دينيّ أو فكريّ إسلاميّ. إلّا أنّ أسلوب مواجهة هذه الحقيقة تختلف بين ناقد وآخر، فبعضهم يرى التّحصين والمقاومة أمرًا ملحًّا، وآخرون يقترحون طريقة للتّفاعل النّقديّ والانخراط في هذا التّحوّل العالميّ، وغيرهم يقترحون تقديم نموذج بديل يتّسم بصيغة إسلاميّة محافِظة لضمان استرجاع الأفراد إلى منظومة القيم الإسلاميّة. (الحاج، 2002)

في الواقع، نستطيع أن نرى شيئًا من هذا القبيل في أكثر من مظهر وعلى عدّة مستويات، فنحن نجد الكمّ الهائل من الإنتاج الإعلاميّ المقاوِم الذي يتنوّع في

ظواهره، سواء أكان على مواقع التّواصل الاجتماعيّ المشهورة، أم من خلال النّدوات وجلسات النّقاش التي تُقام في المدارس والجامعات، أم عبر التّجمّعات الشّبابيّة في المناسبات الإسلاميّة الخاصّة بالأشهر الهجريّة، والتي يراها المسؤولون فرصة لشدّ انتباه الشّباب، خصوصًا، نحو مثل هذه الفعّاليّات عِوضًا عن اللّحاق بما يُسمّى «ترند» أو غيره من العادات الغربيّة التي باتت تتغلغل في صميم حياتهم اليوميّة.

3. الهويّة الإسلاميّة الفاعلة في ظلّ العولمة

تُعدّ الهويّة الإسلاميّة بلا منازِع أحد الأركان الرّئيسة التي أسهمت في بناء أجيال الأمّة الإسلاميّة؛ إذ إنّها تجمع المعتقدات الدّينيّة والمنظومة الأخلاقيّة في قالب واحد يفي الحاجات الإنسانيّة؛ لكنّ العولمة الغربيّة تحمل نزعات فرديّة وأنماط فكريّة مغايرة لمفاهيم الإسلام تمامًا؛ الأمر الذي أظهر تحدّيات حقيقيّة تهدّد وجود هذه الهويّة، وتنذِر بموجة كونيّة عارمة تسعى إلى طمس الخصوصيّات الثّقافيّة واستبدالها بأخرى غربيّة.

1.3. سمات المسلم المعاصر في رأي القرآن الكريم

استنادًا إلى وجهة نظر القرآن الكريم، يجب أن يكون لدى الفرد المسلم الذي يتّخذ من الدّين أساسًا ومحورًا له مميّزات وصِفات، مثل الوعي والعلم والرّؤية والالتزام العمليّ والإيمان، وقوّة التّقوى والتّحكّم بالذّات، وقدرة تقييم الذّات والآخرين، والذّهنيّة الواسعة والمنفتحة، والقدرة على إقامة العلاقات والمعاملات الصّحيحة والمنطقيّة مع الآخرين (مرزوق، 2019، صفحة 260)؛ فالعلاقات والسّياسات يجب أن «تكون قائمة على الحرّية، المعرفة، القبول، المرونة، التّفاعل التّسامح، النّقد، والتّقييم المستمر للذّات وللآخرين» (مرزوق، 2019، صفحة 276).

إذًا، التّربية الحقيقيّة ليست دوغمائيّة منغلقة؛ فلا تتشبّث بموقف فكريّ أو سلوكيّ من دون الانفتاح على الحضارات الأخرى، ولا تتوانى عن إطلاق مبادرة حواريّة أو نقاشيّة؛ بل تفتح الطّريق أمام تبيين الأمور وقَبولها بشكل منطقيّ، حتّى يتمكّن الفرد من التّفاعل مع الآخرين بشكل آمن وسليم لا يؤثّر في المبادئ الرّاسخة. هذا المبدأ رسّخه القرآن الكريم منذ عهد النّبي الأكرم(ص) في الآية الكريمة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: 256)، فد أوحى الله إلى نبيّه استعمال أساليب الإقناع والحوار والنّقاش، وهو أسلوب يقف على طرف نقيض من الدوغمائيّة.

أمّا أبرز الخصائص التي تظهر في تصرّف المسلم الملتزم فهي، أوّلًا، الثّبات على القيم والمبادئ؛ أي أنّه يستذكر مبادئه في سلوكه الرّقميّ، وعند استعماله أدوات التّكنولوجيا الحديثة؛ فلا يتخطّى الضّوابط التي لطالما تربّى عليه، سواء أكان خاضعًا لرقابة أم لم يخضع. إضافة إلى ذلك، يستطيع هذا الفرد مقاومة الإيديولوجيّات الغربيّة الهادفة إلى الانحلال؛ فلا يستقبل أيّ معلومات تحتمل الخطأ أو اللّبس، ولا يشارك أيّ منشورات غير موثوقة أو من دون التّحقّق من مصادرها وأبعادها؛ لذلك، تبقى التّربية الحقّة حصنًا منيعًا ضدّ أيّ تيّار معاكس. ومن ذلك قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات: 6)، وهنا تبيّن الآية الكريمة عاقبة تناقل الأخبار غير الصّحيحة، وهي النّدم، وما يتبعه من آثار وخيمة تطال الأطراف المعنيّة، ومن ثمّ تمتدّ إلى المجتمع بكامله.

ثانيًا، يسعى الفرد الملتزم إلى تحقيق التّواصل الحضاريّ الإيجابيّ؛ فيحرص على الالتزام بالضّوابط الأخلاقيّة في علاقاته مع الآخر المختلف، فيسعى لبناء جسور الحوار والتّثاقف وتبادل المعلومات في إطار الاحترام وتقبّل الرّأي الآخر من غير تشويه أو تحريض، أو ما إلى ذلك من مظاهر غير حضاريّة قد تمسّ هويّته الإسلاميّة ومبادئه الإنسانيّة، ودليل ذلك جليّ في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: 125)، زد على ذلك، يستطيع هذا الفرد استثمار تكنولوجيا الاتّصالات وأدوات العولمة الرّقميّة الحديثة في خدمة الرّؤية الإسلاميّة نحو العالم، فيُعلي من قيمتها بنشر معارف الإسلام وعلومه، فتتّضح صورة المسلمين الحقّة للعالم أجمع.

ثالثًا، يقول الله في كتابه الكريم ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران: 10)، تؤكّد هذه الآية أولويّة العلاقة مع الله سبحانه وتعالى، فعلى الفرد الواعي أن يدرك أهمّية استثمار الوقت في ما يرضي دينه ودنياه، فلا يستنزف طاقاته في جلسات طويلة عند استخدام التّكنولوجيا، عملًا بمبدأ الوسيلة لا الغاية؛ أي أن لا يسمح لهذه الموجة الكونيّة، بما فيها من فوائد جمّة على مختلف المستويات، أن تؤثّر على عاداته الدّينيّة العباديّة أو المجتمعيّة، ليبقى هو المتحكّم في طرائق استخدامها بدلًا من سيطرتها على يوميّاته وعلاقاته عمومًا.

2.3. ركائز التّربية الدّينيّة المعاصرة

إنّ بنية المذهب الانحصاريّ هو من

جملة البنى التي قامت التّربية على أساسه سابقًا، وذلك ضمن إطار قيميّ خاصّ؛ في حين أنّ التّربية الدّينيّة في أيامنا هذه اتّسمت بجانبٍ غير مجسّد ومُحدّد، فأصبحت أشدّ تفلّتًا من التّحكّم فيها والسيطرة عليها؛ نتيجة لذلك، ثمّة بعض الأصول والرّكائز التي يجب الأخذ بها.

أ–على الفرد، كما تكلّمنا سابقًا، «التّحلّي بالوعي والمعرفة والعلم، وأن يُحقّق الالتزام الدّاخليّ، ومن البديهيّ أن يؤدّي هذا العمل إلى تنمية عمليّة التّحكّم بالذّات والتّوجيه الذّاتيّ، معتمدًا القيم والأسس المُستمدّة من الدّين، وفي الوقت نفسه يستطيع أن يؤدّي إلى زيادة المسؤوليّة العامّة والعمليّات التّربويّة» (مرزوق، 2019، صفحة 277).

ب– تنمية تقوى الحضور؛ أي التّقوى الإيجابيّة عند الفرد المُتربّي؛ لأنّ تقوى الانزواء والاجتناب؛ أي التّقوى السّلبيّة ليست فعّالة أو مجدية.

ت–الإمكانات التّكنولوجيّة من خلال حضور النّاس الفعّال في عصر الاتّصالات، فيكون لدى كلّ إنسان القدرة على الحوار والتّواصل والتّفاعل البنّاء مع الآخرين، لهذا السّبب تبرز الحاجة إلى تقديم نظريّة أو نموذج تربويّ يستطيع أن يتّفق أو يتماشى وتطوّرات العصر الحديث؛ فيُطلق عليه اسم نموذج التّربية الدّينيّة الفضائيّة العالميّة (مرزوق، 2019، صفحة 279).

ج– نتيجة لعصر العولمة المُسيطر على الثّقافات والتّربية عمومًا، على الأفراد أن يتعلّموا احترام سائر الثّقافات وقيمها الأصليّة الإنسانيّة؛ إذ إنّ هذا الانفتاح على العلم والمعلومات أدّى إلى فرض ثورة على المهارات؛ لذلك، بات إيلاء الاهتمام بمهارات، مثل التّفكير النقديّ والتّشاور وتبادل وجهات النّظر وبذل الجهود المُشتركة، من المهارات الأساسيّة التي يجب أن تعتدّ بها التّربية العصريّة. أضف إلى ذلك، «عندما يكون هناك أشخاص لا يُعادون المُسلمين ولايؤذونهم، وهم من غير ديانة، المسيحيّة مثلاً، فالمسلمون مأمورون بمراعاة العدل والإحسان معهم، وعدم الاعتداء عليهم ولا مُصادرة حقوقهم، إذ ورد في القرآن الكريم ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يُقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم﴾ (الممتحنة: 8)، وهنا يوصي الإسلام بالرّحمة واللّطف بهم لعلّهم ينجذبون إليه. إذًا، يمكن القول إنّ حكم الإسلام في التّعاطي مع هؤلاء هو عدم جواز استعمال العنف والقوّة الدّافعة (اليزدي، 2006، صفحة 186).

في هذا السّياق، يقول «ميشال فوكو»: «إنّ العصر الحاليّ هو عصر اقتراب البعض من البعض الآخر ليكونوا جنبًا إلى جنب، وهو عصر التّقارب بين البعيد والقريب، وفي الوقت نفسه هو عصر التّشتّت والتّفرّق» (name، 2004). لهذا السبب، عالم اليوم هو عالم مُتعدّد الثّقافات، ويعيش النّاس في فضاء ثقافيّ مفتوح ومَرِن ومختلط، بمعنى أنّ الثّقافة في عالمنا المُعاصر قد تحرّرت من إطار الأراضي الوطنيّة الصّارم الذي يُشكّل النّظام الدّلاليّ والبنائيّ للأفراد، ليصبح خليطًا من ثقافات مُتعدّدة وثقافات فرعيّة ذات مصادر وأصول مُتفاوتة. (مرزوق، 2019، صفحة 269)

4. بناء نموذج ديني حصين لمكافحة الاختراق الثّقافيّ

يشكّل الفضاء الرّقميّ، اليوم، ساحةً لتشابك المعلومات وتبادلها، فأصبحت الخصوصيّات الثّقافيّة عرضةً للتّأثّر أو الاختراق؛ إذ إنّ خطر الغزو لم يقتصر فقط في الميدان العسكريّ أو الاقتصاديّ؛ بل امتدّ إلى غزوٍ فكريّ ثقافيّ، ليتحوّل لاحقًا إلى حرب ناعمة تستهدف منظومة القيم والعادات، وتحاول القضاء على صلابة المعتقدات وجدّيّتها. من هنا، ظهرت الحاجة إلى بناء نموذجٍ تربويّ حصين منيع، يستمدّ قوّته من الثّوابت الدّينية والحضاريّة، وينفتح في الوقت نفسه على مدخلات العولمة بإدراك وتفكّر وتدبّر.

1.4. أهمّيّة التّحصين الدّينيّ في وجه الانحلال الأخلاقيّ

في ظلّ الانفتاح الإعلاميّ والرّقميّ غير المحدود، ازدادت مظاهر اللّجوء إلى المجال الأخلاقيّ، فيقول الإمام الخامنئي في هذا الصّدد: «على القوى الثّقافيّة في المجتمع أن تعلم أنّ العدو اليوم قد صبّ جلّ جهده على الهجوم الثّقافيّ» (الشيرازي، 2021، صفحة 138)؛ الأمر الذي يهدّد بتآكل البنية الأخلاقيّة والفكريّة للمجتمع تدريجيًّا، أي أنّ المفاهيم يُعاد تشكيلها بما يخدم مصالح الطّذرف الآخر، فهو يعمد إلى توجيه السّلوكيات بعيدًا من القيم الأصيلة؛ إنّه نوع من الاستعمار الخفيّ؛ لكنّه لا يستعمل الجيوش؛ بل يخترق عبر الشّاشات والأزياء والفنّ والإعلام، فهذه الميادين تقلب المفاهيم رأسًا على عقب، ليُصبح التّحرّر مُرادفًا للانحلال، مثال على ذلك، تلك الوسائل تقدّم الإباحيّة بوصفها فنًّا والحياء تخلّفًا.

إذًا، هدف الطّرف الآخر هو الانحراف نحو الإباحيّة، تلك المنظومة الاقتصاديّة والثّقافيّة العالميّة التي تُدار بخلفيّات أيديولوجيّة تهدف إلى تفريغ الإنسان من

محتواه الرّوحيّ والقيميّ، وفي هذا الإطار، نذكر قوله تعالى ﴿إنّ الذين يُحبّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذابٌ أليم﴾ (النور: 19)، هذه الآية لا تُدين الفعل الفاحش فحسب؛ بل تنذر مَن ينشره ويشيعه بعقاب أليم. فالإباحيّة تضعف القيم الفرديّة في متستوى معيّن، وتهدم تلك الأُسَريّة في مستوى جماعيّ بين أفراد المجتمع، وهذا ما يؤدّي إلى اهتزاز البنيان النّفسيّ والاجتماعيّ؛ لذلك، تضطلع التّربية الدّينيّة بدور فعّال في حماية الإنسان وإعادة إحياء المعاني التي تحفظ له كرامته وحرّيته الحقيقيّة؛ لأنّ الإنسان مفطور على التّساؤل عن ذاته وغاية وجوده، وقد قال الله تعالى في ذلك ﴿فطرت الله التي فطر النّاس عليها﴾ (الروم: 30).

في هذا الإطار، قال «كارل غوستاف يونغ»، وهو يحتضر، «أستطيع أن أقول من موقعي كطبيب، إنّ كلّ المرضى الذين راجعوني بعد أن تجاوزوا الأربعين من العمر، كان غياب الدّين سببًا جوهريًّا لمرضهم. إنّه لأمر مذهل! فلو استطعنا أن نمدّهم بدين ما لتعافَوا تمامًا.» (أوشو، 2016)

من هنا نجد أنّ التّربية الدينية تُغذّي الفطرة الإنسانيّة، وتحفظها من التّشوّه والانحراف، ففي خضمّ الحداثة المادّيّة، تُصاب النّفس بالضّياع إن لم تجد مَرجعًا ثابتًا هو الإيمان باللّه وقيمه. وكما تطرّقنا سابقًا، يتعرّض الإنسان في العصر الرّقميّ يوميًّا لفيضٍ هائلٍ من المعلومات والرّسائل الإعلانيّة والثّقافيّة التي تشرّع النّسبيّ وتُلغي المُطلق؛ ما يؤدّي إلى تآكل القيم ودحض ثنائيّة الحقّ والباطل. وهنا تظهر التّربية الدّينيّة حائطَ صدٍّ؛ لأنّها تُزوّد النّاشئة ببوصلة داخليّة تُرشدهم نحو الخير، وتُعينهم على رفض الفتن، نذكر هنا قوله تعالى ﴿قل إنّ صلاتي ونُسُكي ومَحياي لله ربّ العالمين﴾ (الأنعام: 162)، فالحياة تصبح بكاملها مُرتبطة باللّه عزّ وجلّ، وهذا يُشكّل وعيًا أخلاقيًّا راسخًا، فهي حماية من التّشتّت القيميّ والانحرافات.

إذًا، التّربية السّويّة تمنح الإنسان الطّمأنينة في عالم مضطرب تائه، وهنا تتجلّى عظمة العلاقة مع الله في قوله تعالى ﴿ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب﴾ (الرعد: 28)، هي علاقة مُحاطة باللّطف الإلهيّ والأمل والطّمأنينة، وتشكّل مرجعًا عظيمًا يستند إليه الإنسان في حياته، فيستعين على الشّدائد بالصّبر والغفران والعفو، وهي كلّها قيمٌ تُسهم في تحقيق سلامه الدّاخلي وبناء سلام المجتمع من حوله، كما أنّها تُعزّز الاستقرار النّفسيّ والاجتماعيّ، وتنشئ إنسانًا يخاف الله برقابة داخليّة نابعة من إيمانه، وقد قال

تعالى ﴿يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور﴾ (غافر: 19)؛ فالرّقابة الذّاتيّة تجعل المجتمع آمنًا من الشّرور الغريزيّة، فتحقّق بذلك ما تعجز عن تحقيقه الأنظمة المادّيّة التي لا تعرف إلا القانون الخارجيّ.

فضلًا عن ذلك، تُقدّم التّربية الدينيّة نماذج للسّلوك الرّاشد، وتُعلي شأن العفّة والصّدق والأمانة والعدل، وذلك واضح في قوله تعالى ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمُنكر﴾ (النحل: 90)؛ إذًا، هو قانون تربويّ شامل يجمع التّحفيز والمنع في إطار مشترك؛ أي البناء والتّحصين ضدّ الانهيار؛ فهذه التّربية وقاية من الانحرافات السّلوكيّة؛ لأنّها تُخرّج إنسانًا صالحًا وفاعلاً في المجتمع، يرى العمل عبادة، والعلم مسؤوليّة، والإصلاح واجبًا، انطلاقًا من الآية الكريمة ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ (التوبة: 105). فالدّين لا يفصل بين الإيمان والعمل، بل يُلزم المؤمن بأن يكون مُنتجًا، عادلاً، نافعًا للنّاس، ليكون صالحًا وبنّاءً؛ الأمر الذي يسهم ببناء نموذج للتّعايش والرّحمة.

خاتمة

إزاء ما ورد أعلاه من حقائق تثبت تداعيات العولمة الرّقميّة على منظومة القيم الدّينيّة ومبادئها، يتبدّى لنا أنّ تحصين التّربية الدّينيّة في الوقت الحاليّ ليست ترفًا فكريًّا ولا خيارًا جانبيًّا؛ بل ضرورة وجوديّة وأمنيّة تربويّة لحماية المجتمع من التّشوّه الأخلاقيّ في سبيل تثبيت الكرامة وإعادة الحرّية الحقيقيّة إلى الوجود الإنسانيّ.

إذًا، نحن في موقع يجب فيه التّصدّي للهجمات الرّقميّة التي يتعرّض لها جيل كامل مهدّد بالانحراف؛ لذلك، «نحن بحاجة لوضع البرامج وأوّل خطوة في هذا المسير هو أن نُفكّر بتجديد وتقوية المطالعات، وترميم نظامنا الفكريّ، ثمّ نبدأ عملنا معتمدين على أسس مُحكّمة وأصول قوية بالاعتماد على عامل البصيرة والمعرفة والبنية الثّقافيّة» (اليزدي، 2006، صفحة 26). من أجل ذلك، علينا أن نجهّز أنفسنا بالسّلاح الفكريّ، ونتعرّف بدقّة على أصول الفكر والثّقافة الإسلاميّة؛ لأنّ الله نفسه يحفظ الدّين في الآيات الكريمة ﴿إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون﴾ (الحجر: 9)، ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كلّه ولو كره المُشركون﴾ (الصف: 9)، ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم﴾ (الممتحنة:8).

المصادر العربيّة:

القرآن الكريم

المراجع العربيّة:

1. أوشو. (2016). **من العلاج إلى التأمل.** بيروت: دار الخيال.
2. جلال أمين. (1994). مشروع الشرق أوسطية والنهضة العربية. **مجلة آفاق السلام.**
3. رحمت الله مرزوق. (2019). **مباني وأصول التربية والتعليم** (ط1). بيروت: دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع.
4. سيار الجميل. (2000). **العولمة والمستقبل** (ط1). عمان: الأهلية للنشر والتوزيع.
5. عبدالرحمن الحاج. (2002). **الهوية الإسلامية والعولمة الثقافية.** بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
6. علي الشيرازي. (2021). **مدخل إلى المنظومة الفكرية للإمام الخامنئي** (ط1). بيروت: مركز المعارف للترجمة.
7. غازي حسين. (1995). **الشرق أوسطية- إسرائيل عظمى** (ط5). بيروت: المركز العربي الجديد.
8. محمد تقي مصباح اليزدي. (2006). **تحديات ومواجهات** (ط1). تر. السيد علي عبد المنعم مرتضى، بيروت، لبنان.
9. مصطفى رجب. (2000). مخاطر العولمة على المجتمعات العربية. **مجلة البيان.**

المراجع الأجنبيّة:

- No name .(2004) .**Internationalizing the business curriculum** .*American academy of business*.